

بياجية ، واركسن ، والنمو الذهني والنسبي

زيد عبدالكريم جايد

كلية الآداب - جامعة الموصل

هناك اسس وقواعد عامة تخضع لها الكائنات البشرية في نموها خلال المراحل المختلفة اضافة الى وجود خصائص يتفرد بها كل انسان وترتبط بالظروف والعوامل الداخلية (الذاتية) والخارجية المحيطة به . لذلك فان التنبؤ بما سيكون عليه الكائن البشري (والطفل خاصة) مستتبلاً أمر متعذر مالم تؤخذ تلك العوامل والخصائص التي يتفرد بها الطفل بنظر الاعتبار : فالنمو العقلي مثلاً يختلف في مقداره من طفل لآخر حتى في حالة تساوي هؤلاء الاطفال في عمرهم الزمني اذ يتقدم الموهوب بعمره العقلي على اقرانه في العمر الزمني ويتخلف لدى المعوقين ذهنياً عن العمر الزمني .

لقد درس العالم السويسري «جان بياجيه» JEAN PIAGET النمو العقلي للأطفال من خلال ملاحظاته لهم منذ ان كان يبحث في مختبر مدرسة العالم النفسي «بينيه» ، ALFRED BINET عن استجاباتهم حول فقرات اختبارات الذكاء التي وضعها بينيه ثم في العيادة النفسية بمدينة زيورخ فكان يقابل الاطفال في محاولة لاكتشاف الطرائق

والاساليب التي يتمكنون من خلالها التوصل الى الاجابة ، وهذا ما حفزه لدراسة النمو العقلي مستخدماً اسلوب الملاحظة والمقابلة ، كما انه استفاد كثيراً من ملاحظاته عن اطفاله جاكلين و لوسين ، ولورنت . وقد تركت اهتماماته على دراسة الفرق بين تفكير الطفل والراشد ، حيث يرى ان مفاهيم وافكار الطفل غريبة جداً عن افكار ومفاهيم الكبار . ومن جهة اخرى فان افكار الطفل ذي السبع سنوات تتمركز حول ذاته EGO CENTRIC وتأثر بحاجاته ورغباته الشخصية اكثر من تأثرها بفهم ما يجري في بيئته .

لقد انعكس تخصصه بياجيه بعد حصوله على الدكتوراه في العلوم الحياتيه من جامعة لوزان ، انعكس على مسيرة بحوثه ودراساته حين تبنى اطارا بايولوجيا BIOLOGICAL MODEL للنمو ، اضافة الى تأكيده دور البيئة . فهو يرى ان النمو العقلي للطفل لايمكن ان يتم بشكله الصحيح الا عند وجوده في بيئة يتفاعل معها ، لكونه بحاجة لاقامة علاقات مع الاطفال والكبار الاخرين ومواد البيئة حيث تؤدي الى اكتساب قدرات جديدة يمكن ان ترسم لها ملامحها المحددة من خلال عملية التنشئة (NURITION) . وتأكيذاً لذلك فان هيب (HEBB, 1949) قد اشار في دراسة له عام 1949 الى ان اختلاف نمو القدرات العقلية لدى الافراد يعود للفرق في العوامل الوراثية والى الفروق في المثيرات النفسية / العصبية Psychomotor خلال السنة الاولى والثانية من حياة الفرد .

اما أريك أريكسون فهو احد رواد الفرويدية الحديثة حيث يؤكد على سيكولوجية الاثنا . ولقد بذل اهتماماً كبيراً في دراسة مشكلات « كينونة الفرد » وفي كتابه « CHILDHOOD AND SOCIETY » افترض وجود ثماني مراحل متتابعة للنمو يتخللها تقاطعات المهمات النفسية التي ينبغي للفرد ان يجتازها بنجاح من اجل الوصول الى النضج النفسي والاجتماعي . كما تكتسب مرحلة المراهقة في نظرية اريكسون اهمية كبيرة تحتوي على اهم التقاطعات النفسية ، اذ يحاول المراهق مواصلة تشكيل شخصيته من خلال فعاليات الاثنا او النفس الواعية « Conscious self » .

وكتيجة لاهتمامات اركسن بصراعات كينونة الفرد فانه قام بدراسة مختلف الشخصيات التاريخية والفلسفة الهندية ، ويبدو ذلك واضحاً في كتابه « Young Man Luther » وما فيه من اهتمام واسع « بالتاريخ النفسي » ، « Psychohistory » (1) .

وانثارت نظريته اهتمام العديد من الباحثين النفسانيين في ميدان النمو الانساني وظهور اتجاهات جديدة تقلل من الاعتماد على مرحلة الطفولة في دراسة الشخصية كما كانت عليه الفرويدية القديمة ، وفضلاً عن ذلك فقد وجهت نظريته الاهتمام لدراسة مرحلة المراهقة وما يبرز فيها من صراعات ونمو نفسي له دوره الكبير في تشكل الشخصية وكذلك في دراسة حياة الفرد بأكملها .

من جانب آخر ، فان نظرية اركسن تفترض بأن تحليل التداخل بين خبرات الحياة اليومية والمؤثرات البايولوجية ضروري جداً لفهم الشخصية اذ تستحيل دراستها خارج نطاق هذين المؤثرين . وخلال نموه في المراحل الثماني التي حددتها النظرية فان الفرد يتعرض لصراعات (CRISES) ناجمة من تعارضه مع البيئة ، وقد اكدت النظرية على وجود هذه الصراعات في كل مرحلة من مراحل النمو النفسي الاجتماعي للفرد كما ان هذه الصراعات تستلزم معالجتها قبل ان يكون الفرد مهياً للدخول في المرحلة القادمة اي انه سيظل يعيش احداث مرحلة دونية حتى بعد تجاوز عمره لفئة تلك المرحلة عند فشله في حل صراعاتها .

تفترض نظريتنا بياجيه واركسن محتوى منظما من المراحل لهما وتصميماً فعالاً بنظمه ، حيث يعتمد ان الشخص له مساهماته الفعالة في نموه الخاص ، وعلى الرغم من كون بياجيه يهتم بالنمو المعرفي واركسن في التحليل النفسي - الاجتماعي فان نظرية بياجيه تدرس الانسان منذ ولادته وحتى دور المراهقة لحوالي سن الخامسة او السادسة عشر بينما تهتم نظرية اركسن بالفرد في مراحل حياته كلها والتي قسمتها الى ثماني مراحل سيرد ذكرها في هذا البحث لاحقاً . وترى النظرية الاخيرة ايضاً ان العلاقات الاجتماعية اليومية واتجاهات الآخرين ممن يحيطون بالطفل تظهر تأثيراتها في ردود فعله سواء في مواقف الحياة العادية أو عندما يكون في موقف اختباري ، لذلك فانه يعتقد بان الموقف الامتحاني يمثل نوعاً مصغراً للحياة الاجتماعية (VERNON 1979) .

لقد حدد اركسن الى جانب المراحل الثماني ثلاث مراحل اخرى للنمو الاخلاقي وهي : -

١ - المرحلة الاولى : وتتضمن القضايا والقواعد الاخلاقية التي تعلم للطفل في مرحلة الطفولة .

٢٠ - المرحلة الثانية : وتشتمل على الخبرات الايديولوجية التي يكتسبها الفرد في مرحلة مراهقته .

٣٠ - المرحلة الثالثة : وتتضمن امتزاج ماتعلمه الفرد من القواعد الاخلاقية واكتسابها المتأقوة الصلابة في مرحلة الرشد للحد الذي يصبح فيه قادراً على تبنيها والدفاع عنها .
تعتمد نظرية علم النفس - اجتماعي Psychosocial لاركسن على مبدئين اساسيين هما : -

١ - ان تقدم الفرد من مرحلة الى اخرى لايمكن ان يتم الا عندما يكون مهياً من النواحي البايولوجية ، النفسية ، والاجتماعية التي تؤهله للانتقال للمرحلة القادمة .

٢ - تساوي وامتزاج فهم الفرد مع الفهم الاجتماعي يعد هدفاً رئيسياً يحققه الفرد في نموه . ان من اهم مايميز هذه النظرية النفسية - الاجتماعية هي ان اركسن صاغ مراحلها واطارها النظري اعتماداً على رصده ومراقبته للحياة الاجتماعية العامة والاساليب التي يتصرف بها الافراد في مجتمعهم ، وهذا ماجعلها تختلف عن بعض النظريات الاخرى التي اعتمدت في صياغتها على البحوث او الحالات المرضية والشاذة منها كما هو الحال في نظرية فرويد في التحليل النفسي او نظرية الذات لكارل روجرز .

يعتقد اركسن بأن التغيرات التي تحصل في البيئة وما ينجم عنها من متطلبات جديدة غير تلك التي اعتادها الفرد سابقاً ستجعله يواجه صراعاً جديداً تزداد حدته تحت وطأة التناقض بين الفرد والمتطلبات القديمة من جهة وبين تلك المتطلبات الجديدة من جهة اخرى وهذا ما دفع اركسن لتسمية التعارض الناجم بين الفرد والبيئة «بالصراع» Crise ولنغذ الى يياجيه الذي يرى ان النمو العقلي عملية تنظيم واعادة تنظيم مستمرة لمواد وخبرات البيئة ، فلقد افترض اربع مراحل متتالية لنظريته هي : -

١ - المرحلة الاولى : الحسية الحركية **SENSORIMOTOR PERIOD**
وتبدأ من الولادة وحتى عمر سنتين .

٢ - المرحلة الثانية : فترة ما قبل التفكير الاجرائي **PREOPERATIONAL PERIOD**
وتبدأ من السنتين الى -عمر السبع سنوات .

٣ - المرحلة الثالثة : مرحلة العمليات الحسية **CONCRET OPERATIONAL PERIOD**
من عمر السبع سنوات الى الحادية او الثانية عشرة من العمر .

٤- المرحلة الرابعة: مرحلة العمليات الرسمية FORMAL OPERATIONAL PERIOD وهي الأخيرة إذ تمتد من الحادية أو الثانية عشرة وحتى الخامسة عشرة عاماً من العمر .

يجتاز الاطفال هذه المراحل بالتتابع وفق الاعداد الزمنية المذكورة باستثناء الاطفال المعوقين ذهنياً الذين يظهر تآخراً وابطاء في اجتيازهم لهذه المراحل ، فلا يمكن ان يعبر الطفل لمرحلة اعلى دون المرور بالفترة التي قبلها ، فالمرحلة الجديدة دائماً تظهر وتتشكل على اساس المرحلة السابقة وكما ذكر فان الابطاء او التوقف في اجتياز اية مرحلة يعد دليلاً على انخفاض المستوى الذهني او الذكاء الذي يرى يياجه انه شكل من اشكال التكيف البايولوجي بين الفرد او البيئة اي انه (الذكاء) يتمثل بقابلية الطفل على التكيف للمواقف البيئية في الاعداد المختلفة وكدليل على ما تقدم فقد وجد (لوفل) وآخرون (LOVELL et al 1962) ان الاطفال المعوقين بعمر ١٤ - ١٥ سنة ينجزون ما يستطيع اطفال السبع سنوات والنصف من انجازه فقط وخاصة في المفاهيم العددية

Geometrical Concept

سيستعرض الباحث في أدناه طبيعة كل مرحلة لكننا النظريتين لتسهيل مهمة دراستها:

١ - الفترة الأولى منذ ولادته ، يستطيع الطفل ان يقوم باعمال محدودة جداً كالرضاعة وطرح الفضلات وتتكون انشطته من حركات كلية MASS MOVEMENTS مع استجابات قليلة متخصصة ومتوافقة بحدود معقوله . كما انه يولد لديه تهييج عام يعبر عنه بالصراخ الذي يتعدل ويتحول من خلال البيئة ، وخلال نموه في هذه المرحلة فان سلوكه يتحول من استجابات حادة ومتطرفة الى انماط سلوكية معدلة ، يكون قادراً من خلالها على تأجيل بعض طلباته لبضع ساعات ثم ايام . فالطفل بعمر ستة اشهر يتمكن من التنسيق بين حركة عينيه ويديه، وفي الشهر التاسع يستطيع الوصول الى لعبة تخفي عن بصره اذا مراقب عملية اخفائها . وفي عمر ١٨ شهراً فانه يقوم بمحاكاة سلوكية تعبيرية كتحرك العين أو تغيير تعابير الوجه ، وفي حوالي الستين فانه يكون قادراً على تأجيل اداء الحركة التي يقلد بها غيره لبضعة ايام بعد ان شاهدها للمرة الاولى .

ويغزو يياجه قدرة الطفل على محاكاة انماط سلوكية تمت ملاحظتها ام لا ، يعزوها الى زيادة الاتساق بين مختلف الاعضاء الحسية من جهة والى اكتساب وتكوين الصور الذهنية لتلك الانماط.

يسحب الطفل في هذه المرحلة قطعة القماش التي وضعت اللعبة فوقها ليقرّبها لمتناول يده بعد ان ادرك العلاقة بين قطعة القماش واللعبة، وهذا ما يطلق عليه بياجيه (خطة الفعالية) **« ACTION SCHEME »** والتي عرفها (MUSSEN et.al 1979) بانها استجابة عامة يستخدمها الطفل لمعالجة المشكلات المختلفة التي يمر بها. كما يستطيع الطفل في نهاية هذه المرحلة البحث عن اللعبة التي اخفيت دون علمه أو ملاحظته لاختفائها . فهو في نهاية هذه الفترة يعرف ان اية مادة لها وجود دائم لا يتسهي او يتلاشى بمجرد اختفائها عن نظره (PIAGET, 1947) كما انه يستطيع تقليد نماذج مكعبات بسيطة لم ير طريقة تركيبها في حين انه لم يكن قادراً على ذلك في عمر ١٢ شهراً انما يستطيع تقليد ما يرى طريقة تركيبه من نماذج بسيطة في هذا العمر . ويستطيع الطفل في هذه المرحلة معالجة بعض الاشياء يدوياً بطريقة المحاولة والخطأ ولهذا فهو لا يستخدم اللغة ورموزها في ذلك ، كما يتعلم خلال هذه المرحلة كيفية تطوير فكرته عن «مفهوم السببية» **CASUALTY CONCEPT** والتي تعرف بأنها «مقدرة بسيطة نسبياً لتوقع سلسلة متتابعة من الاحداث تتبع سبباً محدداً او بأنها تحديد السبب الذي تنجم عنه نتيجة او اجراء محدد ، انه يكون قادراً على ادراك العلاقات ذات التسلسل المرتبط بنموه الزمني .

يعتقد بياجيه ان الطفل في هذه المرحلة يمر بثلاثة احداث مهمة هي :-

- ١- تعلمه من خلال خبراته ان الاشياء لا تتوقف عن الظهور او لا يمكن ان تختفي نهائياً عند غيابها عن بصره فيقوم بتكوين صورة ذهنية لهذه الاشياء .
- ٢- اكتشافه بأن الاشياء الموجودة في البيئة اشياء دائمة حتى اذا ما كانت تلك الاشياء (الافراد) تبدو في اشكال واوضاع مختلفة وهذا كما يرى بياجيه يعد دليلاً على سلوك ذكي يقوم به الطفل، فهو يتعرف على امه مثلاً اذا ما غيرت ثيابها او تسريحة شعرها لوزنتها .
- ٣- تعلمه الربط السببي بين الاحداث. اي ان نتيجة معينة لسلوك محدد ستكون سبباً لحدث جديد، فاستمراره في الصراخ سيغير الوالدين على الاستجابة لحمله، ومسكه للمدفأة سيسبب له الماء حاداً فيتعلم تجنبها .

تكتسب هذه الاحداث الثلاثة اهميتها في نظر بياجيه من كونها تجعل الطفل قادراً على الابتعاد التدريجي عن التمرکز حول الذات **MOVE AWAY FROM EGO-CENTRIC**

تقابل المرحلة الاولى في نظرية بياجيه مرحلة الطفولة المبكرة في نظرية اركسن الذي يسمي السنة الاولى من الحياة «بالفترة الحرجة» في تنمية الثقة بالآخرين .

يؤكد اركسن على هذه المرحلة «EARLY INFANCY STAGE» والممتدة خلال السنتين الاوليين من الحياة تأكيداً على المراحل الاخرى في نظريته ، لكنه يربط الفترة الزمنية لكل مرحلة بالفروق الفردية التي يعطيها الدور الرئيسي لتمديد طول أو قصر أية مرحلة من مراحل النمو (FONTANA, 1978) ويرى اركسن ان الطفل سيملك فهماً او حساً للثقة (TRNST) اذا ما حصل على امومة جيدة، بينما يكون كثير الخوف والقلق وان عليه ان يحصل على ما يريد عن طريق الاعتداء على الآخرين او الصراع معهم عندما تكون امومته سيئة وغير مراعية لحاجاته بالشكل الصحيح، وقد اعطى اهمية للفروق الفردية اذ اعتمد عليها بشكل رئيسي في تحديد طول او قصر الفترة التي يقضيها الطفل لاجتياز مرحلة معينة. ومن جهة اخرى فقد اكد اركسن على تأثير الفهم في نمو الطفل النفسي الاجتماعي لكونه الوسيلة الاساسية التي تربطه بالحياة وشبهه بـ «حزمة صوتية تحقق اول ارتباط عام بالحياة»

AS THE FOCUS OF GENERAL FIRST APPROACH TO LIFE
THE CORPORATIVE APPROACH وخبرات الطفل الاولى للوظائف التي يقوم بها لها دور آخر اضافة لمهمتها في حفظ الحياة واستمرارها ، فهي تساعد الطفل على تنسيق عملياته الذاتية في تخلصه من الفضلات مثلاً او القيام بالاعمال ذات الطابع اليومي المتكرر «CIRCULATORY RHYTHMS» كما ان احساس الطفل الاول «بالثقة» يساعده على النمو السيكولوجي وتقبله للخبرات الجديدة بمحض ارادته (ERIKSON).

٢ - مرحلة ما قبل التفكير الاجرائي : -

يعتبر بياجيه هذه المرحلة الجانب الاعدادي للمرحلة القادمة (مرحلة العمليات الحسية)، ويختلف اتباعه في النظر اليها كمرحلة مستقلة ام تابعة لـ (FLAVELL) يذهب للرأي نفسه بينما يراها (DONALDSON) جزءاً فرعياً من مرحلة طويلة اسمها مرحلة العمليات الحسية الطويلة. وتمتد هذه المرحلة من عمر سنتين الى سن السابعة او الثامنة من العمر وقد تعامل بعض العلماء النفسيين معها على انها مرحلة مستقلة حيث يرون معظم محتوياتها المعرفية سلبية اذا ما قورنت مع المراحل الاخرى، لذلك فان الجزء الاكبر من هذه المرحلة يحدد في ضوء غياب القابليات الواضحة الصريحة.

وقد اشار بياجيه الى هذه المرحلة من النمو الذهني كما لو انها مرحلة لعرض او تمثيل الذكاء ، فالطفل يكتسب القدرة على اجراء عمليات لاكتشاف التشابه والاختلاف من خلال استخدامه اللغة والصور الذهنية ، لكنه مع نمو قدرته في استخدام اللغة والتفكير الرمزي سيظل يعاني من صعوبات في استيعاب وجهة نظر طفل او راشد آخر ، اذ يستخدم الكلمات الجاهزة التي ترد على ذهنه حول موضوع معين مباشرة ، واستخدام كهذا يكون بشكل ينقصه التنظيم والترتيب . كما ان استخدام الاسماء في هذه المرحلة هو الخطوة الاولى لاستخدام اللغة فهو يمكنه من التفريق والتعرف الغامض - الى حد ما - على الاشياء المادية الثابتة .

ان بداية الاستخدام الحقيقي للغة هي التي تحدد نهاية مرحلة الطفولة الاولى (INFANCY) للاطفال الاسوياء ، اما نهاية المرحلة المحسركة فتكون باستخدام الطفل للصور والرموز واللغة في تفكيره . فالطفل عندما يميز أباه بصرياً ثم يسميه (بابا) يظل يتعرف عليه ويعرفه حيث يكون له من بعد فكرة واضحة حتى عند غيابه ، وهو في هذه المرحلة لا يستطيع ان يمحصر انتباهه على كل من الكمية والحجم في تعامله مع جوانب اخرى للمادة نفسها فلو اعطيناه كرة من الطين الاصطناعي ، ثم قمنا بعد تفحصه لها بتحويلها لشكل اسطواني فان الطفل يستنتج من ان الكرة والاسطوانة يحتويان كميات مختلفة من الطين الاصطناعي مع انهما في الحقيقة يحتويان على الكمية نفسها .

يظل النمو في بداية هذه المرحلة غير متكامل في الجانب المعرفي ، فهو يستمر بأفكاره ذات الطابع المتمركز حول ذاته « EGO CENTRIC » وهذا ما ندك عليه استجاباته المبنية في معظمها على اهتماماته الخاصة ؛ لكنه من جهة اخرى يصبح قادراً على استخدام الرموز التي تؤهله للثبات في تصرفاته ويتدرج به النمو ليكون قادراً على تمثيل واسترجاع تلك التصرفات دونما حاجة لاعادتها وتنفيذها عملياً . وهو يرى الاشياء من زاويته الخاصة فقط ويصنمها اعتماداً على ادراكه لها ، فعندما يسلط انتباهه على بعض مكونات موقف معين فأنه سيتجاهل العوامل او المكونات الاخرى لذلك الموقف مع انها تمتلك ذات الاهمية في ذلك الموقف . فاذا ما عرضنا قدحين متشابهين تماماً ومملوئين بكمية متساوية من الماء ، ثم سكبنا احدهما في قدح طويل وضيق فان الطفل سيقول بان الماء في القدح الاخير اكثر منه في القدح الآخر وذلك لكون مستوى الماء قد ارتفع فيه اكثر بسبب ضيقه . يرى

بباجيه ان الطفل لا يستطيع فهم ماتعنيه «الكمية» ، اذلك فهو غير قادر على فهم ان كمية الماء بقيت كما هي على الرغم من تغيير شكل القدرح .
والطفل في هذه المرحلة ايضاً لا يستطيع الرجوع في الاتجاه المعاكس لنقطة معينة فهو يضيف أربعة الى ثلاثة لتكون سبعة لكنه لا يجد الأمر سهلاً للحصول على الاربعة من طرح ثلاثة من السبعة اذا ما طلبنا منه ذلك بعد فترة وفي موقف منفصل عن الموقف السابق .
ويمكن عكس العمليات العقلية عندما يتمكن الفرد ذهنياً من الرجوع بتفكيره الى الخلف للعودة الى النقطة الاصلية التي ابتداء منها اولاً . ومن جهة اخرى فان الطفل في هذه المرحلة يعتقد ان كل مادة لها شعور واحساس ، فالباخرة تشعر بثقل حملتها والمدفأة تعاني من حرارة اللهب المشتعل بداخلها . لكن هذا الاعتقاد يتطور تدريجياً ليشمل الاشياء المتحركة فقط فتظل الباخرة والسيارة تشمران وتدركان اتجاه رحلتها ، اما الصخور والحيطان فهي لاتشعر او تحس بما حولها . اما في عمر المرحلة القادمة ٨ - ٩ سنوات فهو يكتشف ان الاشياء التي تشعر هي الاشياء التي تتحرك بذاتها حيث تنحسر صفة الشعور عن السيارة والحيطان .

طلب بباجيه من بعض الاطفال ان يتعرفوا على الطفل المقصر : هل هو الفتاة التي كانت تساعد امها في المطبخ فكسرت عشرة اطباق ام الطفلة التي كسرت طبقاً واحداً عندما ارادت الوصول الى علبه الحلوى التي وضعتها امها فوق الرف . اجاب الاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين ٥ - ٧ سنوات روتينياً بأن الطفلة الاولى اكثر تقصيراً اما الاطفال الذين تجاوزت اعمارهم هذه المرحلة فقد اجابوا بعد مناقشة بينهم توصلوا من خلالها الى ان الطفلة الثانية اكثر تقصيراً لكون هدفها اقل خلاصاً من هدف الطفلة الاولى .
ان عالم الطفل في هذه المرحلة تبعاً لرأي بباجيه هو عالم اكثر استقراراً ويتسع لكثير من المواد والاجسام الثابتة التي بدأ بادراكها خلال المرحلة السابقة . كما ان فكرة الماضي والمستقبل وكذلك الحاضر تصبح من الامور التي بإمكانه التعامل معها . اما العلاقات التي تنشأ بين المواد والاحداث فهو يعتقد بانها غير مستقرة .

في نظرية اركسن هناك مرحلتان تقعان في الحدود العمرية لمرحلة ما قبل التفكير الاجرائي هما المرحلتان الثالثة والرابعة اللتان تنضمنان الفترة الاخيرة من الطفولة المبكرة جداً (INFANCY) ومرحلة الطفولة المبكرة . يصل الطفل لنهاية فترة الرضاعة وهو في سنوات الحضانة (٣ سنوات) ثم في عمر رياض الاطفال التي تقابلها فترة (Infant School) ذا يتطور

بنموه البايولوجي كمي يكون مستقلاً عن الاخرين لكنه في بعض الاوقات يشد نفسه لانه بينا. يتعد عنها في احيان أخرى ويبدأ بالتدريب على السيطرة على مثائه والتخلص من فضلاته ويتدرج في طريق الاستقلال التام كنتيجة لصراعات الارادة الناجمة بينه ووالديه والهادفة لضبط وضعه الجسمي والسيطرة على طرح فضلاته . يعتقد اركسن ان هذه الفترة تبدو وكأنها تقدم احساساً بالانفصال والكآبة الشاملة حول ما يسميه اركسن «بالجنة المفقودة» وعندما يشعر الطفل بهارضة مع الكبار الذين يظنون ان التحكم الذاتي يختلف بمفهومه عما يكون عليه الطفل فانه يشعر بنقص في الضبط الذاتي SELF CONTROL ويشعر بالشك والارتباك والخجل والحياء من رغبته في استملاية اكبر . ويشير اركسن الى عدم وجود قيم موحدة تسود المجتمع فقيم اي سلوك ايجابية كانت ام سلبية تختلف من ثقافة وحضارة لاخرى وكذلك من عائلة لاخرى . (ERIKS ON, op. cit)

المرحلة الثالثة من مراحل نظرية اركسن تضم سنوات ما قبل المدرسة الابتدائية ويمكن ان يصلها الطفل وهو في مرحلة INFANT SEHOOOL «البريطانية» حيث تنمو لتسريع والمهارات اللغوية النامية يسمحان له بالاتصال بالآخرين والاشياء (بشكل اكثر اتساعاً واشمل مما كان عليه) التي تحيط به ، كما ان سلوكه الاخلاقي ينمو بالاعتماد على اللغة التي يستخدمها مع الكبار لشرح وتفسير الجوانب الاخلاقية اضافة لذلك فانه يتأثر بسلوك الناس الكبار من حوله) ويحتل الاب مكاناً ذا اهمية تؤثر في حياة الطفل ويبدأ بتنمية افكاره حول انصواب والخطأ والملازمة كما انه يميل لاستخدام واختيار لغته النامية حديثاً وقراراته العقلية وخلال هذه المرحلة ايضاً يكون قادراً على طرح اسئلة تدل على فهمه لكثير من الاحداث الغامضة قديمها وحديثها وهو يعدل ويصني نشاطاته ومهاراته العضلية والذهنية ويبدأ بملاحظة الفروق الجنسية بين الافراد في محيطه مما يهيء له مضامين تتعلق بمشاعر شخصيته ومستلزمات اجتماعية لحياته في مجتمعه ، ويبدأ جلياً ان ذاته في تكونها تتأثر بكل من ملاحظاته وتعديل انشطته ومهارته . كما يمتلك الطفل طاقة كبيرة تساعده على نسيان فشله بسرعة ، وهذا ما يؤهله لبداية جديدة ثانية مع غايات افضل وأكثر تأثيراً (FONTANA, op. cit)

ونمو المبادرة لدى الطفل له مضامين ترتبط بنوع التربية التي ينبغي للكبار ان يهيئها ، للاطفال في هذه المرحلة ، لذلك ينبغي ان تهيأ للطفل انواع من التعليم تمكنه على ان يكون شجاعاً ، مبادراً ، لا يتردد .

٣ - المرحلة الثالثة :-

تمتد هذه المرحلة من ٧ - ١٢ سنة ، وقد وصفها بياجيه بانها مرحلة المنطق LOGIC PERIOD كما قسمها البعض منهم الى قسمين « العمليات الحسية » و « العمليات الرسمية » اكن الاخيرة اعتبرت مرحلة منفصلة من قبل كثير من اتباع بياجيه في حين عدها البعض كمرحلة فرعية تأتي بعد مرحلتين فرعيتين أخريين هما مرحلة ما قبل التفكير الاجرائي ومرحلة التفكير الاجرائي .

ينمي الطفل في هذه المرحلة سلسلة جديدة من العادات اطلق عليها اسم « التجميع » GROUPING اذ تنفرد بخصائص منطقية خاصة بها . كما يتمكن الطفل ايضاً من تتبع الحقائق المنطقية التالية ادناه عند فهمه لعادات او قوانين الاشياء .

١ - لا يحتاج الطفل ان يستخدم مرة ثانية العمليات التي سبق ان استخدمها لايجاد ما اذا كان احمد يمتلك عشرة دراهم ام لا ، اذا كان الطفل يعرف مسبقاً ان كلا من أحمد ومحمد يمتلكان كمية متساوية من النقود ، وان المبلغ الذي يمتلكه محمد مساو لما عند علي والذي يعرفه الطفل اصلا وهو عشرة دراهم .

٢ - لا يحتاج الطفل الى قياس وزن الحجر «أ» لايجاد ما اذا كان اثقل من الحجر «س» ام لا اذا كان ذلك ان الطفل يعرف مسبقاً ان الحجر «أ» اثقل من الحجر «ب» ، والاخير اثقل من الحجر «ج» ، والحجر «ج» اثقل من الحجر «س» . فالطفل في هذه المرحلة يعرف صدق استنتاج كهذا حتى عند عدم تهيؤ الفرصة لمشاهدة الاحجار أ ، ب ، ج ،

(MUSSEN. et. al. 1979)

٣ - يستطيع الطفل تصنيف الاشياء تبعا لعلاقتها فيما بينها ، اذ يضع البرتقال والتفاح والرموط تحت صنف واحد هو « الفاكهة » ، ويضع كل الفواكه تحت صنف « الطعام » كما انه يستطيع عكس العملية باعادة اصناف الفاكهة كل الى خانتها مثلا ثم تكوينها مرة اخرى لكونه اصبح قادرا على ادراك ان الطعام يتكون من الفاكهة ومواد اخرى لا يطلق عليها اسم « الفاكهة » .

٤ - من الممكن ان يقتنع الطفل بأن مادة معينة تنتمي الى اكثر من صنف واحد او اننا نستطيع تكوين اكثر من علاقة معها في وقت واحد . فاذا طلب من الطفل اجراء تصنيف « للطيور » ، « والحشرات » من جهة ثم « الكائنات التي تطير » ، « والكائنات غير

القادرة على الطيران « من جهة اخرى سيضع الطفل « النعامة » ضمن مجموعة « الطيور »
وضمن مجموعة الكائنات « غير القادرة على الطيران » في وقت واحد .

يقول بياجيه بأن عمل الاطفال للتنظيم قبل بلوغهم السابعة من العمر : فهم يقارنون
ازواجا من الاشياء ثم يصححون نتائج مقارناتهم . ولكنهم في مرحلة العمليات الحسية
بامكانهم اختيار اكبر دابة ضمن مجموعة من العلب في المرة الاولى . ثم يختارون العلبة
الاكبر من المتبقيات في المرة الثانية وهكذا اذ يتسم عملهم بالانتظام ، كذلك فان الترتيب
والترج والتصنيف تصبح احدى السمات المميزة للنمو العقلي لاطفال هذه المرحلة . كما
انهم يضعون الاشياء وفق ترتيب معين حسب علاماتها وأطوالها ، واوزانها : ويستطيع
الطفل ذو الثماني سنوات من العمر ترتيب ثماني عصي تبعا لاختلاف اطوالها كما ان ادراك
الصفات المشتركة التي تربط بين خمس قطط وخمس كرات (خمسة) . لكنه يفهم
ايضا ان القطط والكرات الخمسة مختلفة بانواعها واوزانها .

ومن بين ما يميز الطفل في هذه المرحلة انه يتعرف على ان العديد من المصطلحات النسبية
مثل « الاصغر » ، « الاضعف » ، « الاعم » تشير الى علاقات بين احداث معنوية وليست
الى خصائص مادية ملموسة على الرغم من كونه لا يزال يربط بعنوية بين الجزء والكل .
لو عرضت ثمانية اقلام خضراء وخمسة اقلام حمراء على اطفال وسئلوا ما اذا كانت
الاقلام الخضراء اكثر ام الاقلام فان اطفال الثمانية اعوام سيجيبون « توجد اقلام كثيرة »
بينما لا يستطيع الاطفال بعمر خمس سنوات اعطاء الجواب المناسب اذ يقولون « يوجد
الكثير من الاقلام الخضراء » .

ومما يراه بياجيه لهذه المرحلة ان الطفل الصغير لا يستطيع تحليل العلاقات بين الجزء
والكل بعنوية ، كما ان قدرة الطفل على التفكير تمكنه من المبادرة والسيطرة على محيطه :
ومن البديهي هنا القول بأن تلك المبادرة والسيطرة تختلف نسبيا عما تنبي عليه عند الكبار :
وهنا ينبغي الاشارة الى اعتماد بياجيه الذي يتضمن كون الطفل يتشابه مع الكبار في شعورهم
لكنه يختلف عنهم في تفكيره ، وهذا على العكس تماما مما ذهب اليه مدرسة التحليل النفسي
التي ترى ان الطفل والكبير متشابهان في تفكيرهما ومختلفان في شعورهما فيما يتعلق
بتصورات وتخيلات كل منهما (ELKIND , 1969) .

من جهة اخرى فان تفكير الطفل لا يزال محدودا ، اذ يميل الى وصف محيطه اكثر من
ميله الى فهم وتوضيح ما يدور فيه ، وهذا يبين السبب الذي يكمن خلف كون الاطفال

يجدون الامر في ذكر امثلة من الاشياء ايسر لهم من ذكر ادلة وبراهين محددة عن تلك الاشياء ويتجلى عند الطفل في عمر السبع سنوات ادراكه لعملية الطرح ، اما ادراكه لمفهوم الوزن فهو يتأخر لما بعد سن الثامنة من العمر ، وفي سن الثانية عشرة من العمر فانه يكون قادرا على ادراك مفهوم الاحجام .

هناك تغيرات في النمو العقلي خلال هذه المراحل الثلاث . يبدو اولها في ادراك الطفل اذ يحدث خلال العمليات العقلية في المرحلتين الثانية والثالثة . اما التغير الثاني فهو الذي يتم بموجبه نقل سيطرة الفعاليات الذهنية الى ما يسمى بالذكاء العملي الناضج (MATURE OPERATIONAL INTELLIGENCE) وقد حددت نظرية ياجيه ثلاثة فروق في الذكاء بين المرحلتين الاولى والثالثة من النظرية عند مقارنتها هي : -

١ - ان ذكاء المرحلة الاولى الحسركية اكثر استقرارا واقل حركة لكونه يعتبر ان الاشياء تصطف واحدا خلف الاخر بدون اي ترتيب لنظرة عامة او اكتشاف خصائص شاملة لتلك الاشياء في حين ان ذكاء المرحلة الثالثة افضل كثيرا في تعامله مع التحولات والروابط الحاصلة بين الاماكن والمواقف وكيفية ارتباط كل منهما بالآخر :

٢ - يهدف ذكاء المرحلة الاولى تحقيق نجاحات عملية بينما يهتم ذكاء المرحلة الثالثة بالايضاحات والشرح والفهم .

٣ - لذكاء المرحلة الاولى سلسلة مكانية وزمانية ضيقة لكونه محددًا بالتصرفات الواقعية المنجزة لاشياء ملموسة ، بينما يكون ذكاء المرحلة الثالثة اوسع افقا واكثر حرية حركية .

هذه المرحلة تقابل المرحلة الرابعة من نظرية اركسن والتي اطلق عليها اسم « مرحلة العمر المدرسي» (ERIKSON, 1959) اذ يرى ان الطفل بحاجة لأن يجد مكانا ضمن الاطفال الاخرين في مجموعته العمرية لكنه عاجز عن احتلال مكان مساو لذلك في المجتمع الذي يحتل الكبار امكته ، وهذا مايعتبره اركسن وكأنه الوجه القطبي الذي يتجلى عند تعارض المفهوم الصناعي للمجتمع ومشاعر النقص عند الطفل . واحساس الكبار بان الطفل مازال كائناً غير مكتمل يؤثر عليه من خلال تأثير مشاعر النقص الناجمة عن عدم كفاية الحلول للصراعات المتقدمة ، وانطلق عندما يقارن نفسه مع والده فانه سيعاني من احساس بالذنب وشعور بالنقص يتولد نتيجة هذه المقارنة ، لذلك فانه يحاول علاج مشاعر الذنب والنقص باستثمار كل الفرص ليتعلم من خلال تصرفاته وتجاربه ومن خلال مهاراته الاولى

INTIATIVE SKILLS للانماط الحضارية التي يتطلبها مجتمعه . ويتمتع الطفل بحرية لعمل الاشياء بشكل جيد فهو يستخدم بعض مواقف الحياة الواقعية في ممارسة لعبته وفعالياته . كما يميل الاولاد والبنات للانفصال بعضهم عن بعض في لعبهم وعاداتهم ، ومع ذلك فانه يلاحظ اشتراك احد افراد الجنس الاخر في اللعب مع الجنس المغاير في بعض الاحيان . لقد اعطى اركسن اهمية لمراحل نظريته الثلاث الاولى فهو يقول بأن اجتياز الطفل لهذه المراحل الثلاث بنجاح سيؤهله لاداء اعمال صعبة نسبياً ويعزز ثقته بنفسه ليكون نشطاً مثابراً وفعالاً **‘TO BE INDUSTRIOUS’**، لكن نشله في ذلك يشعره بالنقص والاحباط والتردد .

ان نهاية هذه المرحلة ستكون على عتبة الدخول لفترة المراهقة والبلوغ حيث يفقد اللعب اهميته ، ويبدأ الفرد بالتخلي التدريجي عن عاداته الطفولية. وادى مقارنة الافراد فيما بينهم فاننا سنجد الكثير من الاختلافات الواسعة بينهم في هياتهم وقدراتهم؛ اضافة الى ذلك فهناك استجابات واسعة الاختلاف لدى الفرد نفسه تبعاً لمواقف حياته وخصائصه الذاتية. ويبدأ الفرد في هذه المرحلة بالتفكير في ما اصبح يدركه على انه قيود عائلية حيث يشعر بضرورة كسر الطوق والخروج من دائرة حياته العائلية المعتادة. كما انه يعطي ابويه وآباء اصدقائه قيماً وأهمية جديدة اذ يصبحون الى جانب غيرهم من معلمي المدرسة والجيوان قوي دلالات اجتماعية تترك اثرها الواضح في تحديد شخصيته ، ويحتل اقرانه اهمية كبيرة لكونه يحتاج نجاحهم او فشلهم للتعرف من خلاله على قدراته الذاتية (SELF-ESTEEM). فلقد وجد (COOPERSMITH) ان الطفل الذي يدرك انه غير قادر على اداء عمل معين وتقبل حالته هذه مسبقاً، ثم طلب منه اداء ذلك العمل نفسه فان هذا سيؤدي للجهر بالعدوانية او التظاهر بأن هذا العمل لا يستحق ان يعمل لذلك فانه سيرر فشلته عن الوصول الى المستوى المدرسي المطلوب بسبب خطأ المعايير المستخدمة وليس بسبب عدم كفايته الذاتية وهنا تبدو معاناة الفرد مما اطلق عليه « الذات المتدنية» (LOW SELF-ESTEEM).

٤ - المرحلة الرابعة : مرحلة العمليات الشكلية :

تدخل بعض فترة المراهقة ضمن هذه المرحلة من مراحل النمو الذهني والتي تبدأ من سن الثانية عشرة من العمر لذلك سيكون الحديث هنا عن المراهق، فهو اذ يبدأ بالتفكير فيما وراء الاحداث الواقعية والصنيع النظرية كأن يضع فرضيات معينة ثم يبدأ تدريجياً بتطوير جوانب يصل من خلالها لاستنتاجات قد تكون بعيدة عن فرضياته وتحليلاته الأولى.

ويتعامل المراهق في هذه المرحلة مع العبارات والبداهيات والاحداث وصولاً الى حل المشكلة التي تواجهه . كما ان ما يصل اليه من استنتاجات قد يكون نتيجة تصنيفاته ، او استخدامه لتسلسل الاحداث او العمليات الاخرى التي يحتمل ان يكون قد طورها خلال المرحلة السابقة ، حيث كان يتوقف عن التنصي عند عثوره على الوسيلة النافعة او معرفته للطريقة التي يمكن ان تعالج وضعاً معيناً في حين انه يستمر في هذه المرحلة بعد وصوله للحل المطلوب ، اذ يستمر في تقصيه وتبعه لاكتشاف ومعرفة النظام الكلي الذي كان يبحث في جزئياته ، فهو قادر على اكتشاف الاسباب وتعليل الاحداث وربط ، الافكار وصولاً الى أستنتاج معين .

لقد قارن (ميوسن وجماعته) (NUSSEN ET.AL·1979). بين المراهق في هذه المرحلة: والطفل في المرحلة السابقة فأشاروا الى ان طفل المرحلة الثالثة يميل الى التعامل بشكل واسع مع الحاضر (الان وهنا) لكن المراهق يصبح مهتماً بالامور الفرضية والمستقبلية القريبة منها والبعيدة .

وحيث يعتقد بياجيه بأن هذه المرحلة تمثل الجانب المتقدم في تدعيم الذكاء والسلوك الذكي فان الاطفال المعاقين في نموهم يصبحون غير قادرين على الوصول الى هذه المرحلة اما الذين يصلونها متأخرين عن أقرانهم بالعمر الزمني فلا بد ان يكونوا قد عانوا من بعض الانحراف او الاعاقة الذهنية بشكل او بآخر (WYNE and O CONNOR, 1977) .

كما ان بإمكان المراهق في هذه المرحلة وضع صيغ نظرية لمعالجة مشكلاته مع الاحتفاظ بالكثير من المتغيرات في ذهنه بشكل عفوي بسيط . لكنه من جانب اخر لا يزال يختلف في تفكيره ن تفكير الراشدين على الرغم من تشابههم النوعي (MUSSEN, 1970) وقبل وصول المراهقين الى حياة الراشدين العقلانية فانهم غالباً ما يذهبون بافكارهم لاراء ، ووجهات نظر يبغون منها تغيير العالم وفق ما يعتقدونه صحيحاً (FONT ANA, op. cit). والشخص في هذه المرحلة يكون قادراً على التعامل في تفكيره مع الامور الاحتمالية اذ ان بإمكانه التعليل المنطقي لمواقف حقيقية او غير حقيقية تعرض لها خلال المرحلة السابقة ، وهو ايضاً قادر على التعليل العلمي ووضع الصيغ المنطقية ، وبإمكانه ايضاً تتبع اسلوب الجدل والمحااجة حتى في القضايا التي لا يقيم اعتباراً لمحتواها الاصيلي . (MUSSEN et- al op. cit) . كما يقوم بتنظيم العمليات وترتيبها وفق طرق رفيعة المستوى من خلال تجريبه . بعض القوانين التي تعالج نوعاً من المشكلات ، وهنا يلاحظ اختلافه عن

طفل المرحلة السابقة الذي يعالج مشكلاته باستخدام المحاولة والخطأ . وبأمكانه أيضاً (المراهق) ادماج بعض العمليات المعقدة والمنفصلة وصولاً الى صيغة جديدة من البناء ، المتكامل مع بعضه لمعالجة مشكلة جديدة .

ومما يميز هذه المرحلة عن غيرها من المراحل ان المراهق يبدأ باستخدام طريقة التعليل من خلال الاستنتاجات الافتراضية والتي تعرف بانها أي نمط من التعليل الذي يأخذنا خارج حدود خبراتنا اليومية ، ويتعامل مع اشياء ليست لدينا خبرات مباشرة عنها (Modgil, 1974) .

وتصبح اللغة اكثر اهمية هنا لاحتلالها المركز الرئيسي في الاستنتاج والتعليل فهي ، وسيلة مهمة بسبب ماتحتله من دور في التعليل المنطقي الذي يعتبر اهم صفة تميز هذه المرحلة حيث يتمكن الفرد من صياغة الافكار والبديهيات ومعالجة ما يتعرض اليه من مشاكل . وتعد هذه المرحلة في نظرية بياجيه المرحلة الاخيرة اذ تقابلها المرحلة الخامسة في نظرية علم النفس / اجتماعي (Psychosociology) . فالمرهق حسب وجهة نظر اريكسون هو الذي يبني لنفسه تدريجياً صورة « الشخص الجديد» حيث تتشكل كينونته ، وتشكل الشخصية في نهاية مرحلة المراهقة فمن يحدد شخصيته بنجاح سيكون الفرد الاكثر ثقة وواقعية في حياته (ERIKSON, 1950) اما من يفشل في انجاز مهمة «اكتشاف ذاته SELF-DISCOVERY» فإنه سيعاني من تعارض القوانين ROLE CONFUSION التي تحيط به مما يؤدي بالتالي الى اخفاقه في تكوين فكرة واضحة عن نفسه . وربما ان الشعور بالثقة مهم جداً في مرحلة الطفولة المبكرة لانجاز مهمات نجاحه واجتيازه لخبرات الطفولة فان بناء كينونته «IDENTITY» تعد مسألة جوهرية في هذه المرحلة وما يترتب عليها من اتخاذ القرارات المهمة في حياته كاختيار المهنة وشريكة الحياة . وبما ان النمو الجسمي والجنسي يصل الى مرحلة النضج في هذه المرحلة فان المراهق سيجد نفسه مهياً للانتقال من حياة الطفولة الى مرحلة الرشد حيث سيواجه مشكلات عديدة تختلف الى حد ما عن تلك المشكلات التي سبق ان مر بها والتي افادته في تكوين خبرات سابقة عنها . ففتته السابقة بقدراته البدنية والذهنية تتغير وتضعف ، وهنا تبرز حاجته لمراجعة جديدة لخبراته السابقة حيث يتقدم تدريجياً من خلال تلك المراجعة لتقييم ذاته في ضوء مرحلته الجديدة والتطور الذي وصل اليه ويتوقع الكبار منه كما يتوقع هو من نفسه الكفاح المستمر لانجاز ما تتطلبه الحياة الاجتماعية كي يكون مؤهلاً لحياة الرشد على الرغم من ان حياته

ومشكلاته الجديدة تختلف كثيراً عن مشكلات مرحلة الطفولة . وقد اثبت علماء النفس والاجتماع ان مشكلات هذه المرحلة ناتجة في معظمها من الحضارة والتغيرات الثقافية المصطنعة اكثر من كونها ناتجة بسبب من التغيرات البيولوجية للكائن . (FONTANA, 1978)

وان احساس الشباب بالوحدة والاغتراب هذه الايام هو المسبب الرئيسي لانصرافهم الى تعاطي المخدرات او انهيارهم النفسي الذي يكون اضافة لتعاطي المخدرات سبباً مباشراً في تباعدهم او على الاقل في تخلف بناء علاقاتهم الوجدانية Erikson. op. cit p. 66 وتحتل مجموعة الاقران في هذه المرحلة اهمية كبيرة ليست فقط من كون ان المراهق يحتاج للتعرف على قدراته الذاتية من خلال ممارسة وضعه الذاتي بقرانه كما في المرحلة السابقة في نظرية اركسن انما تكتسب اهميتها من كون المراهق ينتفع منها في استعارته لقوتها عند ضعف اناه العليا ، وهذا ما يفسر نزوع بعضهم للالتحام بمجموعة معينة على الرغم من التباين الملحوظ بينه وبين تلك المجموعة في القدرات او الخصائص الاخرى .

كما يظل المراهق في محاولاته لتأكيد ذاته من خلال محاولاته في الانتماء الايديولوجي الذي يرى انه سيجعله جيداً اخلاقياً ومتوافقاً مع مجتمع الكبار : لكن نزعات بعض المراهقين وانحرافهم التكري قد يفسر ايضاً بأنه تأكيد للذات هؤلاء المراهقين الا ان ذلك يتبع حالات الفشل والاختفاق التي عانوا منها خلال المراحل النفسية / الاجتماعية التي مروا بها بشكل اوبأخر (RIKSON, CPCIT) .

كما يرى اركسن ان التزام المراهق بايديولوجية ايجابية متوائمة مع حركة مجتمعة تعد نافعة لكونها تتولى حراسة كينونته (GARDIAN OF IDENTITY) .IBID لذلك يمكن الاستنتاج بان النجاح في اجتياز هذه المرحلة يمكن الفرد من بناء هويته المهنية وتحقيق التوازن بين ذاته واقرانه . اما الفشل في اجتياز هذه المرحلة فانه سيؤدي الى عجز المراهق عن تنمية هوية ايجابية وجنسية مقبولة اجتماعياً اذ يكون الفرد عند فشله في اجتيازها عرضة للوقوع في الجنوح .

بعد ان اكتمل ذكر مراحل نظرية بياجيه الاربع وما يقابلها من مراحل في نظرية اركسن فان الباحث سيقدم في مايلي ماتبقى من مراحل لنظرية النمو النفسي - اجتماعي

PSYCRISOCIAL THEORY

٥ - مرحلة الشباب :

تعد هذه المرحلة ، المرحلة الخامسة في نظرية اركسن اذ يرى ان الفرد يستطيع ان ينمي شخصيته من خلال مايتاح له من فرص مشاركة للاخرين. والاجتياز السليم لهذه المرحلة يمكنه من بناء علاقات ايجابية مع الاخرين من كلا الجنسين. وقد اسمى اركسن قابلية الفرد في اقامة علاقات مع الاخرين (INTIMACY) التي تعرف بانها «القدرة على اقامة روابط وعلاقات وجدانية لصيقة مع اخرين من كلا الجنسين وتتضمن الجوانب العاطفية والعلاقات الاخرى كالزواج والصدقة». ويرى اركسن ان علاقة طالب - معلم تدخل ضمن مفهوم «المودة او اللفة» INTIMACY .

اما الفشل في اجتياز هذه المرحلة فإنه يؤدي الى معاناة من خوف فقدان كينونته وميل لان يكون انانيا وغير سوي (SELF ABSORB) كما انه يعاني من التمييز في صداقاته «كأن يكون معجبا بكل واحد ولايجب اي واحد» .

٦ - مرحلة الرجولة

وهي المرحلة السادسة ويسمىها اركسن ايضاً بالمرحلة المشيحية (GENERATIVITY) لكون الفرد يبذل فيها للارتباط بعلاقات زوجية وعائلية، اذ ان اهم حوادث هذه المرحلة هو الزواج والابوة او الامومة كما تنجز خلالها كثير من الاعمال الابداعية من خلال اهتمام الكبار بالبنوة الشخصية بسبب التأثيرات الاجتماعية. وعادة مايشغل الافراد في هذه المرحلة بمهمة تربية وتوجيه النسل. ويعلق اركسن حول مسألة اعتماد الاطفال على الكبار اذ يرى ان هذا الاعتماد هو السبب المباشر الذي يجعلنا نبتعد عن ادراك حقيقة ان الجيل الاقدم يعتمد على الجيل الجديد ايضاً حيث يشعر الرجل الكامل « بالحاجة الى ان يحتاجه الاخرين» (ERIKSON, 1950, 258) .

٧ - اما المرحلة الاخيرة فهي مرحلة الشيخوخة او ما يسميها اركسن احياناً

بالرجولة المتأخرة

اذ يتطور نمط الكمال INTEGRITY في خط الثقافة السائدة ووجوهها التاريخية لكي تصبح ارثاً روحياً للشخص «PATEIMONY OF HIS SOUL» .
ان معالجة المواقف المتضادة لانماط الحياة المختلفة ومعالجة مايسميه اركسن «الخوف من الموت» «DEATH FEAR» كنهاية غير مرضية للم يتم انجازه من مشاريع واهداف

حياته هما ان شرط المطلوب للكمال. والوصول الى الكمال هذا يراه اركسن بانه الامر الرئيس الذي يقضي على مايسببه الخوف من الموت من الام. ويقول اركسن في هذا المجال :

ان العلاقة بين كمال الكبار والصدق الطفواني يدرك

بالقول بأن الطفل السليم سوف لا يخاف الحياة اذا

ماكان لاهله كمال كاف يبعدهم عن الخوف من الموت .

ويرى اركسن ان الشخص كثير الشك هو الذي يشعر بانه لا يوجد وقت كاف لمحاولة تطوير حياة اخرى او لاكتشاف طرائق جديدة للكمال الذي فشل في الوصول اليه. كما يمكن القول هنا ان هذه المرحلة تتضمن شعورا بالحكمة والاتجاهات الفلسفية التي غالبا ما تمتد الى ما بعد دورة حياة الفرد الاعتيادية اذ يتم تطويرها من قبل الاجيال القادمة .

الملاحظات

١ - Psychohistory ميدان حديث في علم النفس لدراسة الاحداث والشعوب بدأ لأول مرة عند فرويد في دراسته للفنان الايطالي ليوناردو دافنشي « LEONARDO DAVINCI» وقد ظهرت خلاقات حول الاهتمام بهذا الميدان حتى الان كما ظهرت جوانب اخرى. شملت تاريخ المفاهيم التنسية كالعقل والجنون واللاشعور، وتاريخ الطفولة كما اشتمل على المحاولات التي تبذل لتفسير الاسباب والاحداث المؤدية لتغيير الاتجاهات خلال مرحلة زمنية معينة .

- Elkind, D. (1969)
Children and Adolescents
ترجمة الدكتور صبحي عبد اللطيف المعروف بالبصرة - مطبعة حداد
- Erikson, E. (1959)
Identity and Life Cycle
New York: International University Press
- Fontana, D. (1978) .
Personality and Education
London; Openbook Publishing
- Hebb, D.O.A. (1949) . . .
The Organization of Behavior
New york : wiley
- Lov ell, k. et- al. (1962)
Growth of some geometrical concept. *Children
Development* ,33, 4, 751- 767 .
- Modgil, s. (1974)
Piagetian Research: A Handbook of Recent of
Studies
Windsor: NEER .
- Mussen, P.H., et- al. (1979)
Children Development and Personality
New york: Harper and Row
- Mussen, S. (1970)
Manual of Child Psychology
New york: John wiley and Sons .

Piaget , J. (1947)

The Psychology of Intelligence

London: Rontled and Kegan Paul

Vernon, p.E. (1979)

Intelligence : Heredity and Environment

San Francisco: Freeman and Company

Wyne and Oconnor (1977) ..

The Exceptional Children

New York:Wiley

التفسير الاجتماعي لمشكلة جنوح الأحداث

هادي صالح محمد / كلية الآداب

المقدمة

تعد مشكلة جنوح الأحداث من المشكلات التي حظيت باهتمام مركز من المتخصصين في العلوم الجنائية والاجتماعية والنفسية. وقد لا تبعد عن دائرة الصواب فيما اذا قلنا ان سر هذا الاهتمام يعود من ناحية الى اتصال هذه المشكلة بشريحة مهمة من شرائح المجتمع الا وهي شريحة الأحداث التي تعقد عليها الامم الامل الكبيرة في عملية بناء مستقبلها، وتعود من ناحية اخرى الى ما تمثله من خسارة مادية كبيرة تتحملها الهيئة الاجتماعية من خلال عمليات التحقيق مع الأحداث الجانحين ومرافعات المحاكم والعلاج داخل المؤسسات الاصلاحية والرعاية اللاحقة على اطلاق السراح والمجتمعات البشرية عبر مراحل تطورها لم تقف مكتوفة الأيدي ازاء هذه المشكلة بل تصدت لها تصدياً يتراوح ما بين الشدة او التسامح والاصلاح، ففي قانون حمورابي لم يكن هناك نص صريح على جرائم الصغار الا ان المادة السابعة منه كانت تشير الى ان الشخص الذي يشتري بضاعة مسروقة من عبد او قاصر (اي حدث) كان ينزل العقاب فقط بذلك الشخص دون العبد او القاصر، وكان

القانون الروماني يجعل الصغير مسؤولاً جنائياً بعد السابعة، ومع ذلك فهو يحاسب - أحياناً - الطفل مادون السابعة إذا ارتكب عملاً بنية الأضرار بالغير، وكانت الشريعة الإسلامية تقرر عقوبات تأديبية لاجنائية على الأحداث الجانحين من سن (٨-١٥) سنة وبعض الفقهاء جعلها ١٨ سنة (١)، وبموجب قوانين العصور الوسطى فقد كانت معاملة الأحداث الجانحين تتسم بالقسوة، فعلى سبيل المثال كان يشير قانون ولاية جبرسي الشرقية - عام ١٦٨٨ - في أمريكا على أن الطفل الذي يهين ويسب والديه أو يكون عاقاً أو مشاكساً تكون عقوبته الأعدام، وبأبشاق الثورة الفرنسية وانتشار أفكار الحرية وحقوق الإنسان ارتفعت أصوات المفكرين (مونتسكيو، فولتير، روسو، بكاريا، بنثام...) التي طالبت بتبني النظرة الإنسانية في معاملة المجرمين سواء كانوا بالغين أم أحداث، ومع تزايد هذه المطالبة تنابت تعديلات قوانين الجزاء وظهرت قوانين ومحاكم الأحداث في معظم أقطار العالم. وأصبح للعقوبة وظيفة اجتماعية تقوم على أسس علاجية وإصلاحية ولم يكن العراق بعيداً عن هذه السياسة الإصلاحية فهو كذلك اتبع نهجاً إنسانياً سليماً في معاملة الأحداث وإصلاحهم (٢)، وهذا ما أشارت إليه المادة العشرون من قانون الأحداث العراقي رقم ٦٤ الصادر سنة ١٩٧٢ (المعدل) حينما أشارت إلى أنه (يجب أن يؤخذ الحدث بالرفق عند التحقيق معه أو محاكمته وأن تستعمل بشأنه كلمة أداة بدلاً من كلمة تجريم وكلمة جانح بدلاً من كلمة مجرم، وأن يلفت نظر ذوي العلاقة في الدعوة إلى عدم التهجم عليه عند الإدلاء بأقواله ولا يجوز تكييله بالسلاسل أو تشديد يديه بالأصغاد).

وبحثنا هذا هو محاولة هدفنا منها التعرف على التفسير الاجتماعي لمشكلة جنوح الأحداث متبعين في عرضه تدرجاً يبدأ بتحديد المفاهيم المركزية للبحث (الجنوح، الحدث)، ثم التفسير الاجتماعي للجنوح والذي غالباً ما يدور حول مؤثرات اجتماعية معتلة تحتويها العائلة، الأحياء المتخلفة، البيئة المدرسية، بيئة العمل، ورفقة السوء (الزمرة) وقضاء وقت الفراغ بنشاطات ضارة.

(١) عن د. فخري الدباغ، جنوح الأحداث، الطبعة الأولى، دار الكتب للطباعة والنشر،

جامعة الموصل، ١٩٧٥، ص ٢١-٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣-٢٤.

تحديد المفاهيم

يعد تحديد المفاهيم من الامور البالغة الاهمية في العلوم الطبيعية والاجتماعية ، فالظاهرة موضوع الدراسة لا بد لها من تحديد علمي دقيق حتى يسهل ادراك معناها وابعادها (١) ، وكلما اتسم هذا التحديد بالدقة والوضوح سهل على الذين يتابعون البحث ادراك المعاني والافكار التي يريد الباحث التعبير عنها بدقة ووضوح (٢) وبما ان موضوع بحثنا هذا يدور حول مفهومين مركزيين هما الجنوح والحدث فأبنا سنقوم بتحديدهما تباعا .

مفهوم الجنوح : -

يشير الفعل جنح الى معنى الخروج على قاعدة او اتفاق فهو ينطوي على التجاوز وعدم الالتزام ، ومن الوجهة الفنية يشير الفعل جنح الى جانب مما يشير اليه مفهوم السلوك المنحرف ، ويرى بعض الدارسين ان مفاهيم الجنوح والانحراف والسلوك اللااجتماعي او المضاد للمجتمع هي مفاهيم مترادفة (٣) بينما نرى ان السلوك المنحرف او اللااجتماعي مصطلح يتميز بالعمومية ، فهو يشمل الاحداث والراشدين ، اما الجنوح فهو مصطلح ذو دلالة محددة يشير الى منحرفين تنحصر اعمارهم بين حدين معينين تنعدم قبل احدهما المسؤولية الجنائية وتنطبق بعد ثانيهما على المنحرف هذه المسؤولية (٤) هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فأبنا نميز بين انحراف الاحداث وبين جنوح الاحداث فالاول يشير الى مظهر من مظاهر السلوك السيء كعدم طاعة الوالدين والاعتياد على الهروب من المدرسة او مخالطة ذوي السيرة السيئة (٥) . اما الثاني فيشير الى انتهاك قاعدة سلوكية تبلورت في صيغة قانونية بحيث تضمنت اجراءا عقابيا معيناً . وعلى ذلك فأن كل جنوح هو انحراف لكن العكس ليس صحيحا دائما (٦) . بعد هذا الايجاز لما يعنيه مصطلح الجنوح لغويا

(١) هادي صالح محمد ، عوامل العود الى الجريمة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ، ١٩٨٤ ، ص ١١ .

(٢) د . عبد الباسط محمد حصح ، اصول البحث الاجتماعي ، الطبعة الثالثة ، الناشر مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ١٧٢ .

(٣) سعد المغربي ، انحراف الصغار ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٧ .

(٤) فاهدة عبد الكريم ، بعض الاطر التفسيرية لمشكلة جنوح الاحداث ، مديرية الشرطة العامة ، مركز البحوث والدراسات ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ١٠٤ .

(٥) د. اكبرم نشأت ابراهيم ، جنوح الاحداث ، عوامله والرعاية الوقائية والعلاجية لمواجهته ، مديرية الشرطة العامة ، مركز البحوث والدراسات ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ٣٥ .

(٦) فاهدة عبد الكريم ، مصدر سابق ، ص ١٠٤ ، ينظر كذلك د. محمد ابراهيم زيد ، مقدمة في علم الاجرام والسلوك اللااجتماعي ، مطبعة دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٣٥٥ .

وما يحمله من تداخل مع مفهوم الانحراف بقي ان نقول ان مصطلح الجنوح تتعدد معانيه بتعدد وجهات النظر القانونية والنفسية والاجتماعية ، فهو من الناحية القانونية يشير كما يذهب تابان - Tappan - الى اي فعل او موقف يمكن ان يعرض الحدث للمثول امام المحكمة واصدار حكم قضائي بحقه (١) ؛ في حين يقضي التعريف النفسي للجنوح ، على حد رأي « اوجست ايكهورن » - بأنه اضطراب ناشيء عن عدم اشباع الحاجات الغريزية للحدث بسبب عوامل اجتماعية ونفسية مختلفة (٢) .

اما من الناحية الاجتماعية فهو يشير الى صور متكررة من الافعال المنحرفة عن النموذج المتوسط (٣) . والنموذج المتوسط يمثل - وفقا لهذا الاتجاه - صورة الحدث المتكامل في نموه النفسي والجسدي والعاطفي بحيث يستطيع التكيف مع جماعته الأسرية والمدرسية والمهنية وجماعات اللعب واوقات الفراغ (٤) .

مفهوم الحدث : -

ان مفهوم الحدث هو الاخر يختلف باختلاف وجهات النظر اللغوية والنفسية والاجتماعية والقانونية . فمن الناحية اللغوية تكاد تجتمع قواميس اللغة العربية على ان الحدث هو صغير السن ، فان ذكر السن يقال « حديث السن » ، وغلتمان (حدثان) اي احداث وجنوح الاحداث تخصيص نوعي لحالة من السلوك تقترن بصغر السن (٥) .

اما من الناحية النفسية والاجتماعية ؛ فان مفهوم الحدث يشير بموجبهما الى الصغير منذ ولادته حتى يتم نضوجه النفسي والاجتماعي وتكامل لديه عناصر الرشد (٦) . في

(١) Tappan .p., juvenile, delinquency, Mc, Graw Hill book comp, New york, 1949, p. 30 .

(٢) اوجست ايكهورن، الشباب الجامع ، ترجمة السيد محمد غنيم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٤ ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٣) اميل دوركايم ، قواعد المنهج في علم الاجتماع ، ترجمة د. محمود قاسم ، و د. السيد محمد بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١ ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٤) د. محمد طلعت عيسى واخرون ، الرعاية الاجتماعية للاحداث المنحرفين ، مكتبة القاهرة الحديثة بلا تاريخ ، ص ٥٠ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

(٦) طه ابو الخير ومنير العصرة ، انحراف الاحداث ، الطبعة الاولى ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦١ ، ص ٢٢ .

حين يقضي التعريف القانوني للحدث بأنه الصغير الذي أتم السن التي حددها القانون للتمييز ولم يتجاوز السن التي حددها لبلوغ الرشد .

هذا وتختلف القوانين في تحديد سن الجداثة . فموجب المادة الاولى من قانون الاحداث العراقي رقم ٦٤ الصادر سنة ١٩٧٢ (المعدل) الحدث هو (من اتم السابعة من عمره ولم يتم الثامنة عشر ذكر آ كان ام أنثى ..) وهذا ماذهبت اليه ايضاً المادة ٦٦ من قانون العقوبات العراقي رقم ١١١ الصادر سنة ١٩٦٩ ، وترفع بعض القوانين الحد الأدنى لسن الحدث الى ثماني سنوات كالقانون الانكليزي والى تسع سنوات كالقانون الاردني في حين ان بعض القوانين تخفض الحد الاقصى لسن الحدث الى ١٦ سنة كالقانون الهندي والباكستاني والسيلائي ، ومنها ماترفعه الى ٢١ سنة كالقانون السويدي والشيلي . وغالباً مايرجع اختلاف القوانين في تحديد سن الحدثة الى عوامل طبيعية واجتماعية وثقافية ولعل من ابرز هذه العوامل المؤثرة في هذا الاختلاف بين قطر وآخر يعود لظروف البيئة الطبيعية وخاصة المناخية التي تؤثر في درجة النمو (سريع ، بطيء) وحصول البلوغ ، الجسدي (١) .

التفسير الاجتماعي للجنوح :-

ينصب التفسير الاجتماعي لمشكلة جنوح الاحداث على دراسة العوامل الاجتماعية المعتلة التي تؤثر سلباً على تكيف الحدث لمقتضيات الحياة الاجتماعية السليمة وتدرج هذه العوامل اوتتداخل فيما بينها مولدة حالات جنوح الاحداث وتنحصر اغلب هذه العوامل في البيئة العائلية ، والاحياء المتخلفة ، والبيئة المدرسية وبيئة العمل ، ورفقة السوء (الزمرة) ، وقضاء وقت الفراغ بنشاطات ضارة (٢). وستناول تأثير هذه العوامل تباعاً:

(١) د. اكرم نشأت ابراهيم ، مصدر سابق ، ص ٣٣ .

(٢) للمزيد عن اسباب الجنوح ، ينظر :

Travis Hirschi, Causes of delinquency, University of California press, 1969.